

التداخل اللغوي بين الفصحى والعامية من منظور عبد الرحمن حاج صالح  
Linguistic overlap between classical and colloquial from the  
perspective of Abdul Rahman Haj Saleh

د. عمامرة كمال<sup>1</sup>، د. مقدم فاطمة<sup>2</sup>، أ.د. راضية بن عربية<sup>3</sup>

<sup>1</sup> جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)، kamal@univ-chlef.dz

<sup>2</sup> جامعة أحمد زبانه غليزان (الجزائر)، kiramk48@gmail.com

<sup>3</sup> جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)، radiabenariba@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/01/25 تاريخ القبول: 2023/03/23 تاريخ النشر: 2023/06/17

ملخص:

مما لا شك فيه، هو أنّ اللّغة الطبيعية تعدّ من أهم الأدوات التي يستعملها الإنسان لتحقيق قصده، وتجسيد أهدافه؛ أي لتحقيق الإفهام والفهم بينه وبين الآخر من جهة، ولتحقيق ما يصبو إليه من جهة أخرى، بيد أنّ أهميتها قد تتجاوز ذلك إلى كونها هي الأداة الأهم من بين مجموع الأدوات اللغوية وغير اللغوية، حيث لا يقتصر دورها على وظيفة نقل الخبر، أو وصف الواقع؛ بل يستطيع الإنسان بواسطتها أن ينجز أعمالاً كثيرة لا يستطيع إنجازها بغيرها، وبناء على ذلك، فاللّغة هي الشفرة الرمزية المهمة في العملية التواصلية، سواء أكانت لغة فصيحة أم عامية.

وتبعاً لذلك تكمن أهمية المعرفة باللّغة واستعمالاتها الفصيحة والعامية بين أفراد الجماعة اللغوية؛ لأنّ غاية مرسل الخطاب تكمن في التأثير على المرسل إليه، فلا بد من توافر مجموعة من الشروط حتى يتمكن المرسل من تحقيق قصده، إذ لا بد له من أن يمتلك اللّغة في مستوياتها المعروفة، كالمستوى الصوتي، والتركيبية، والأسلوبي...، و يعدّ المستوى الدلالي من أهم المستويات التي تتبلور فيها مقاصد المرسل، لذا وجب عليه أن يكون ملماً بالعلاقة الكائنة بين اللفظ والمعنى التي تُحتّم عليه ضرورة معرفته بقواعد تركيبها وسياقات استعمالها المختلفة، وبالإجمال، معرفته بالمواضيع التي تُنظّم إنتاج الخطاب بها، فتؤدّي بدورها إلى نجاح مرسل الخطاب في بلوغ مقاصده، حتى وإن عمّد إلى الإخلال بقواعد نظام اللغة العربية الفصحى، ولجأ إلى توظيف العامي من اللفظ حتى يُحقّق أهدافه وغاياته المختلفة. وتساقفاً مع ما تقدم ارتأيت أن تكون ورقتي البحثية موسومة بعنوان: التداخل اللغوي بين الفصحى والعامية من منظور عبد الرحمن حاج صالح.

الكلمات المفتاحية: التداخل، اللغوي، الفصحي، العامية، عبد الرحمن حاج صالح

**Abstract:**

*Undoubtedly, the natural language is one of the most important tools that man uses to achieve his purpose and embody his goals. That is, to achieve comprehension and understanding between him and the other on the one hand, and to achieve what he aspires to on the other hand, but its importance may go beyond that because it is the most important tool among all linguistic and non-linguistic tools, as its role is not limited to the function of conveying news, or describing reality; Rather, through it, a person can accomplish many works that he cannot accomplish otherwise, and based on that, language is the dominant symbolic code in the communicative process, whether it is an eloquent or colloquial language. Accordingly, the importance of knowledge of the language and its verbal and colloquial uses lies among the members of the linguistic community; Because the goal of the sender of the speech lies in influencing the addressee, a set of conditions must be met so that the sender can achieve his intention, as he must possess the language at its known levels, such as the phonetic, syntactic, and semantic levels..., and perhaps the semantic level is one of the The most important levels in which the intentions of the sender crystallize. Therefore, he must be familiar with the relationship between the word and the meaning, which necessitates the necessity of knowing the rules of its composition and the contexts of its various uses, and in general, his knowledge of the situations that regulate the production of the speech, which in turn leads to the success of the sender of the speech in achieving its purposes. Even if he deliberately violated the rules of the classical Arabic language system, and resorted to employing the vernacular of the pronunciation in order to achieve his various goals and objectives. Consistent with the foregoing, I thought that my research paper should be tagged with the title: Linguistic overlap between classical and colloquial from the perspective of Abdul Rahman Haj Saleh*

**Keywords :** *overlapping, linguistic, classical, colloquial, Abd al-Rahman Haj Saleh*

\*المؤلف المرسل.

## 1. مقدمة:

اللافت للنظر، هو أنّ اللغة في قومها، أو في مجتمعها، هي كائنٌ حيٌّ<sup>(1)</sup>، مثله مثلُ أية ظاهرة اجتماعية<sup>(\*)</sup> أخرى، ينمو ويتغير وفق متغيرات المجتمع الذي هو جزءٌ منه، لذلك تتطور دلالة اللفظة أو الكلمة حسب ما يعتمدها من ضلالٍ تدلُّ على معانٍ جانبيةٍ قد تقوِّد الكلمة أحياناً إلى الابتعاد عن دلالتها الأصلية، أو حملٍ لداليتين متضادتين، وهذا مما يجعلها قادرةً على مسابرة تطور المجتمع الذي هي فيه أهم وسيلة للتفاهم والتواصل، "فاللغة هي كينونة الإنسان وماهيته، فأصل اللغة عند الفرد نابع من طبيعته الاجتماعية التي تلازمه، ومن حاجته إلى التواصل مع الغير"<sup>(2)</sup>، وفي هذا السياق، يؤكد عبد الرحمن الحاج صالح أنّ اللغة هي نظام من الرموز يتواضع عليه لتبليغ الأغراض، وككل ما تتواضع عليه المجتمعات الإنسانية فهي تخضع للتحويل مع مرور الزمان...، والسبب الرئيسي لكلّ تحول هو تأثير الأحداث الاجتماعية في نظم المجتمع من خلال كيفية استخدام أفرادها، واللغة هي وضع واستعمال لهذا الوضع<sup>(3)</sup> بغية تحقيق التواصل بين أفراد الجماعة اللغوية.

وهكذا تصبح اللغة بهذا المعنى هي من خصائص الإنسان وحده، دون غيره من سائر المخلوقات، وبدون اللغة يبدو المرء أباكماً، ويغدو التفاهم بين الناس متعذراً، أو صعباً، ومن هنا كانت اللغة هي التي تميز بني البشر عن سواهم من المخلوقات، والجدير بالذكر هنا هو أنّ الإنسان وضع لكل لغة رموزاً خاصة تكتب بها، فنشأت بذلك اللغة المكتوبة في مقابل اللغة المنطوقة، إذ غنيّ عن القول إنّ الإنسان عرف اللغة المنطوقة أولاً، واستخدمها زمناً طويلاً، طرأت عليها خلاله تطورات كثيرة إلى أن اهتدى إلى وضع الرموز الكتابية<sup>(4)</sup>.

فاللغة في المجتمع وسيلة اجتماعية وأداة تفاهم وتعاون، يستعملها المجتمع في أغراضٍ شتى، في الخطب والإذاعة والدعاية والشعر والمقالات، وفي الصلاة والدعاء وأمور الدين، وفي التعلّم والتعليم، وفي غير ذلك، واللغة، فوق ذلك كلّها، من العناصر الأساسية التي توحد الجماعات، فالجماعة - مهما اختلفت في الدين أو الجنس أو البيئية - فإنّ اللغة هي التي توحدّها، وتجعلها متماسكة ومترابطة، حيث إنّ كلّ «مجتمع يتعارف على "نظام" خاص "للاتصال" بين أبنائه، والثقافة لا تكون ثقافة إلاّ بوسائلها الاتصالية، ولم يعرف الإنسان حتى الآن وسيلة للاتصال أهمّ من اللغة»<sup>(5)</sup>. ولقد كشف البحث العلمي عن العلاقة التي

تربط اللغة بالإنسان وبيئته، حيث إنّ «كلّ نص ينبثق من واقع معين يعبر عنه بالضرورة»<sup>(6)</sup>. فالإبداع العلمي والفني ليس إبداعاً من العدم، ولهذا يمكن تفسيره إلى حد ما على ضوء الشخصية، والوسط، والملابسات التاريخية»<sup>(7)</sup>. وخير دليل على ذلك الدراسات الأنثروبولوجية<sup>(8)</sup>. الحديثة التي بينت أهمية اللغة ودورها الكبير والفعال في دراسة خصائص ومميزات أي مجتمع من المجتمعات.

ولا ريب في أنّ لكلّ لغة خصائص تميزها عن غيرها، وهو ما ذهب إليه كثير من اللسانيين الذين توصلوا عبر بحوثهم إلى أنّ لكل لغة سامية عدة مستويات لغوية؛ فهناك «لغة عليا يكتب بها الأدب شعره ونثره، ولغة وسطى تكتب بها العلوم الإنسانية بأسلوب خال من التنميق في أغلب المجالات، ولغة عامية لا تلتزم بقواعد النحو أو مخارج الأصوات وصفاتها، وتكون متأثرة بعوامل إقليمية اجتماعية أو ثقافية»<sup>(9)</sup>. وفي السياق نفسه، نشير إلى أنه لا يمكن مقارنة العربية الفصحى بالعامية، لأن «الفصحى هي المحور أو الكوكب، وما العامية إلّا توابع تدور حول هذا الكوكب وتتباين فيما بينها في مدى ابتعادها عنه، وليس ثمة مجال للتوفيق بين الكوكب والتابع»<sup>(10)</sup>، وعليه، «فاللغة من حيث هي نظام معرضة كي تعيش لفعل الاختراق والتخريب الدائمين ولكن في حدود ما يسمح لها بأن تبقى أرضاً للتفاهم، والتخريب لا يلغي مساحة الاصطلاح، ولا يلغي حركة الانتظام في تبدّلها، بل هو حياة اللّغة وتطورها»<sup>(11)</sup>، ومن هذا المنطلق، فاللغة تحيا وتتطور بالاستعمال، وعليه، نجد «اللغة العربية شفيعة التعبير منذ أن كانت، ذلك بأن فيها لغة فصيحة يتوخاها الكاتب في كتاباته ملتزمة بضوابط الإعراب، ولغة أخرى يقولها الناس ويستعملونها دون أن يلزموا أنفسهم عناء هذه الضوابط، وربما تعدى الأمر مسألة الإعراب إلى الألفاظ نفسها»<sup>(12)</sup>، فهذا التساهل في التعامل مع اللغة والتسيب في استعمالها أدى إلى ظهور العامية والتي تشكل بدورها مشكلة لغوية، «وذلك لأن العربية الفصيحة المكتوبة هي غير العربية المستعملة في التخاطب، وغير اللهجات الدارجة التي لم ترق إلى لغة المثقفين في مادتها»<sup>(13)</sup>.

وتجب الإشارة هنا إلى أنّ هذا الوضع قد شهدته اللغة العربية قديماً، وهو ما ذهب إليه اللغويون الأوائل الذين شافهوا فصحاء العرب، حيث وصفوا هذا الوضع وصفاً دقيقاً، وأكدوا أنّ العرب في مخاطبتهم كانوا يختلسون ويحذفون ويدغمون ويختزلون ويسمى ذلك الإدراج وفي مقابل ذلك نجد الإتمام والتحقق والبيان»<sup>(14)</sup>.

وعند هذا المنحى من الطرح يشير عبد الرحمن الحاج صالح إلى أن «اللغة العربية ليست استثناء بين اللغات، فقد سجل فيها اللغويون منذ عهد الفصاحة السليقة مستويين في الأداء الشفوي، المستوى المسترسل والمستوى المنقبض»<sup>(15)</sup>.

وللتوضيح أكثر يرى عبد الرحمن الحاج صالح أن التعبير الاجلالي: هو حالة انقباض المتكلم وشدة عنايته بما يتفوه به من ألفاظ وما يحدثه من صياغة، وكل هذا تقتضيه حرمة المقام...، أمّا التعبير الاسترسالي: فهو حالة تبذل واسترسال وعفوية في التعبير، وهذا يحصل في موضع الأنس والاسترخاء<sup>(16)</sup>، وإن دل هذا على شيء ما إنما يدل على أن اللغة العربية مستويين ككل اللغات الحية.

ويؤكد عبد الرحمن الحاج صالح أنّ فصحاء العرب قديماً قد ثبت استعمالهم لهذين المستويين؛ بيد أنه أشار إلى وجود فرق جوهري يميز استعمالهم عما هو شائع في هذا العصر، فقد كان كلا المستويين فصيحاً ومقبولاً، وكان كلاهما يمثل أداء ينماز عن الآخر من حيث البنية النحوية والصرفية...، خلافاً لما هي عليه العربية اليوم إذ زاغت لغة التخاطب الشفوي عن كلا الوجهين الاجلالي والاسترسالي الفصيحين، بخروجها عن أصول العربية الإعرابية والتصريفية التركيبية في أغلب المناسبات<sup>(17)</sup>، معنى ذلك أنه لا وجود لمجتمع بلغة واحدة، وأن أفراده لا يستعملون هذه اللغة الواحدة بنفس الطريقة في كل المقامات، أي: أنّ «المجتمع اللغوي يتصف بالثنائية اللغوية وهي وجود لغة فصيحة ولغة عامية وهذه ظاهرة طبيعية منتشرة في كلِّ لغات العالم»<sup>(18)</sup>، ومن هذا المنطلق يرى عبد الرحمن الحاج صالح بأنّ الناطقين باللغة العربية يلجؤون في جميع البلدان العربية ومنذ القديم إلى لغة تخاطب تسمى بالعامية في التعبير الشفاهي عن الحاجات العادية اليومية وتنفرد العامية بهذا الجانب من الحياة، وتختلف العاميات من جهة إلى أخرى قليلاً أم كثيراً كما يلجأ غير الأميين منهم إلى اللغة الفصحى في كل ما له علاقة بالثقافة والتعليم والحياة الرسمية، وكل ما يخص الإدارة ووسائل الإعلام وغير ذلك، وتنفرد الفصحى بكل ما هو مكتوب ولا تنحصر فيه أبد، ومن المعروف أيضاً أنّ العاميات العربية كلّها متفرعة تاريخياً عن العربية وتنوعاتها التي كانت تنطق بها القبائل العربية قديماً<sup>(19)</sup>، وهنا يشير عبد الرحمن الحاج صالح أنّ علماء اللغة وغيرهم قديماً كانوا لا يسمون اللغة الملحونة عامية، حيث «استعمل الجاحظ عبارة "الكلام الملحون" لعامية زمانه، وهي أقدم تسمية للعامية مع استعماله لكلمة "العامي" وصفاً للفظ

الذي يأتي على السنة من يسميهم بالعامية»<sup>(20)</sup>، والظاهر أنّ العامية ظاهرة لا تخص شعباً دون شعب؛ بل هي ظاهرة اجتماعية، «فوجود ازدواجية»<sup>(21)</sup> في نفس اللغة أو بين لغة أصيلة ولهجاتها هو ظاهرة عامة الوجود وتختلف اللغات مع متفرعاتها في ذلك في درجة اختلاف الأولى بالنسبة للثانية وبالمكانة التي تحظى بها إحداها بالنسبة للأخرى»<sup>(22)</sup> على صعيد الاستعمال والتداول.

وعلى العموم نجد عبد الرحمن الحاج صالح، يؤكد على أنّ مسألة الازدواجية اللغوية لا تنفرد بها اللغة العربية عن غيرها من لغات العالم أبداً، فليس من لغة في الدنيا إلا وفيها ازدواجية من هذا النوع، فجميع لغات البشر يوجد فيها مستويان اثنان في التعبير، كما قلنا، بالنسبة إلى اللغة الواحدة: المستوى المنقبض الذي يجري في مقام الحرمة وخاصة في الديدان الثقافي، والمستوى المسترسل العفوي غير المتكلف وفيه أخطاء لا يرتكها المتكلم في المستوى المنقبض»<sup>(23)</sup>، بيد أنّه أشار كذلك إلى وجود فوارق تختص بها اللغة العربية الفصيحة وعامياتها. وهنا لا بأس من أن نتعرض لمفهومي الفصحى والعامية، ولنبدأ بـ:

**مفهوم الفصحى:** لقد حدد ابن سنان الخفاجي<sup>(24)</sup>، المعنى اللغوي للفصاحة في قوله: «الفصاحة الظهور والبيان، ومنها أفصح اللبّن إذا انجلت رغوته، وفصح فهو فصيح قال الشاعر: وتحت الرغوة اللبّن الفصيح، ويقال: أفصح الصبح إذا بدا ضوءه، وأفصح كلّ شيء إذا وضح...»<sup>(25)</sup>، معنى ذلك أن الفصاحة هي لغة الانجلاء والظهور، ومنه قوله: أفصح اللبّن إذا انجلت عنه الرغوة فيكون بعد ذلك فصيحاً خالصاً؛ ومنه قولنا: أيضاً أفصح الإنسان عن كل ما يجول في ذهنه أي أنّه عبّر وكشف عمّا في جوارحه.

تمتد جذور اللغة العربية الفصحى إلى الماضي، أي إلى العصر الجاهلي فهي لغة ديوان العرب (الشعر الجاهلي)، وبمجيء الإسلام اتسعت رقعة اللغة العربية وازدادت رونقاً وجمالاً، فالقرآن الكريم أدّى بها إلى الانتشار، وهو ما نلمسه من قول شوقي ضيف: «وأول ما كان من آثار القرآن الكريم أنّه جمع العرب»<sup>(26)</sup>، فانتقلت اللغة العربية بعد أن توحدت تحت راية القرآن الكريم من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، والجدير بالذكر هنا أنّ القرآن الكريم وحد العالم الإسلامي تحت راية واحدة، لأنّ اللغة العربية ليست حكراً على العرب فقط بل هي لغة كلّ مسلم في العالم.

وتساوقا مع هذا الطرح يشير عبد الرحمن الحاج صالح في كتابه "السماع اللغوي العربي" إلى أن اللغة العربية قبل ظهور الإسلام كانت لغة شفاهية غير مكتوبة، وبمجرد ما ينتشر استعمال الكتابة تنشق هذه اللغة إلى هذين النوعين اللذين هما لغة الثقافة "المنطوقة والمكتوبة" ولغة التخاطب وهي منطوقة ليس غير، كما بين أن لغة التخاطب ولغة الأدب كانتا لغة واحدة بتنوعات لهجية وغير لهجية، كما أشار إلى أن ظاهرة تدوين اللغة المنطوقة واستخراج أصولها وتنميطها "standardisation" كتابة للمحافظة على كيانها "بدافع قوي جدا كالدين وتوحيد الأمة وغير ذلك" هو ظاهرة حضارية تركزت في تاريخ الإنسانية والحضارات<sup>(27)</sup>، فاللغة العربية الفصيحة هي لغة الثقافة والعلم والصحافة والإعلام وغير ذلك؛ أي اللغة المضبوطة وفق المعيار الذي أقامه النحويون واللغويون والبلالغيون وعلماء اللغة على العموم.

واللافت للانتباه، فإن اللغة العربية الفصحى هي لغة خالدة بخلود القرآن الكريم قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾<sup>(28)</sup>، وهو ما جعلها لغة صامدةً وباقيةً، ومنتشرة في الزمان والمكان، فهي لغة كل المسلمين في العالم، لأنها لغة العبادات، أي أنها اللغة التي تؤدّى بها الصلوات الخمس، وبها تتم تلاوة القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وهو ما جعل مكانتها تسمو على غيرها من اللغات التي عرفها التاريخ، ذلك لأن من تمسك بالدين الحنيف تمسك أيضًا بلغته العربية الفصحى.

تعتبر اللغة العربية هي اللغة الرسمية<sup>(29)</sup> للجزائر؛ بمعنى أنها «لغة الدولة، ولغة الإعلام والاتصال، ولغة القضاء، ولغة المؤسسات أيضًا، ولغة التعليم، فهي إذن اللغة الوطنية»<sup>(30)</sup>، ونشير هنا إلى اللغة العربية الفصحى تتميز بكونها لغة تكتسب بالتعلم، وعليه، فهي لا تخص كل فئات المجتمع الجزائري، بل تخص فئة المتعلمين فقط، وذلك لكونها لغة التعليم في مختلف الأطوار النظامية والجامعات والمعاهد ومراكز التكوين وغيرها. ويشير عبد الرحمن الحاج صالح إلى أن تعليم الفصحى بتأدية واحدة في جميع أحوال الخطاب يؤدي إلى إقصائها من كل تخاطب شفاهي عادي واستثنائي حتى وإن كان في موضع علمي<sup>(31)</sup>. ويترك الفرصة متاحة أمام العامية وغيرها ومن اللغات الأخرى أن تزاحمها على مستوى التداول والاستعمال.

مفهوم العامية: هي لغة أنشأتها العامة لمسيرة أوضاعها اليومية المختلفة، أي لغة كل الفئات الاجتماعية، يستعملها الأمي والمتعلم، الفقير والغني، لذلك فهي اللغة المستعملة في كل جهات الوطن، كونها تتصف باختلافات لهجية ترتبط بشكل خاص بالموقع الجغرافي، لذلك نقول مثلا: عاميات الغرب وعاميات الشرق، وعاميات الشمال وعاميات الجنوب، واللافت للانتباه، أنه لا توجد عامية واحدة في كل القطر الجزائري، وذلك لأن العامية في الجزائر نشأة لأسباب جغرافية، وسياسية واجتماعية وفردية<sup>(32)</sup>، وبناء عليه، فالعامية هي اللغة الأم التي يكتسبها الإنسان عندما يبدأ بالكلام، إذ هي لغة الطفل والمراهق والشاب والكهل والشيخ، لذلك نلاحظ أنها لغة يستعملها الأمي والمتعلم معا، وهذا ما يجعل مجالها واسعا وغير محدود، فالأمي والمتعلم يستعملان نفس اللغة في البيت مثلا، بمعنى أنهما يستعملانها على الدوام للتخاطب بشكل غير رسمي، مع أفراد العائلة الآخرين.

وعلى ما يبدو، فالعامية لغة تمتاز بالمرونة والسهولة، كونها من إنشاء العامة، تلك الطبقة البسيطة التي لا يشترط فيها مستوى تعليمي، بل والعامي هو ذلك الأمي، ذلك الحرفي، والتاجر، تلك المرأة البسيطة التي لا تعرف من الحياة سوى فن البيت، وهي تلك المرأة الريفية التي ترعى إبلها وتحلب بقرها، بل العامية هي قبل كل شيء اللغة الأم التي يتعلمها المرء في مراحل الأولى بعد ولادته، فهو يتلقنها من الوالدين ومن الإخوة ومن الجدين- إن وجدوا- ومن المجتمع عامة. الظاهر أن المقصود بالعامية هو «ما ينظم في اللغة العامة بلا ملاحظة الإعراب أو اللغة وأن يؤتى بالألفاظ كما ينطق بها»<sup>(33)</sup>، ونحن نعلم أن العامية في الثقافة العربية لها موقع مهمش إذا ما قورنت باللغة الفصحى، لأن الإخلال بقواعد الإعراب إلى جانب استعمال العامي من الألفاظ «يفسد اللغة ويضيعها فيجب مع توخي السهولة...، المحافظة على قواعد اللغة وروابطها»<sup>(34)</sup>، لأن القول بضرورة البساطة والسهولة في التعبير أثناء استعمال اللغة في تعاملاتنا اليومية (في البيت والشارع والسوق)، ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن البساطة تختلف عن العامية اختلافا جوهريا، لأنها لا تعني أكثر من السلاسة وعدم التعقيد والتكلف في التعبير، في حين أن «العامية لهجة تختلف في كثير من مفرداتها وتراكيبها وأساليبها عن الفصحى»<sup>(35)</sup>، وخير دليل على ذلك أن اللغة العربية الفصحى هي لغة تكتسب بالتعلم، فهي وإن كانت بسيطة تلتزم بقواعد وضوابط الإعراب.



وعند هذا المنحى من الطرح، يؤكد عبد الرحمن الحاج صالح، بأنّ من يدعو في زماننا إلى تعليم العامية بدلا من الفصحى يريد أن يحول العامية إلى لغة ثقافة، ويشير ها هنا، إلى أنّ ذلك لو تحقق، فسرعان ما تظهر لغة عامية أخرى غيرها تقوم مقام العامية الأولى التي تحولت إلى لغة الثقافة لحاجة الناس إلى العفوية<sup>(36)</sup>، وبماء عليه، لا تبقى اللغة الأولى بذلك اللغة الأم، وهنا بالتحديد توصل عبد الرحمن الحاج صالح إلى أنّ الطفل في المدرسة لا يتعلم أبدا لغة الأم كما يزعم بعضهم؛ بل يتعلم لغة الثقافة التي لها كتابة وتخضع للنظام والمعيّار المتفق عليه داخل المجتمع الناطق بها.

وعند هذا المعطى من الطرح، ينبه عبد الرحمن الحاج صالح خطأ خطير يقع فيه أكثر المثقفين وهو الاعتقاد بأنّ هذه العربية التي يتعلمها التلاميذ الصغار في المدارس هي تلك العربية التي تكلم بها العرب في زمان الفصاحة السليبية، وهذا مستحيل لا تصاف لغة التخاطب العفوي بالخفة الكاملة، وعلى هذا الأساس؛ أي بسبب هذه الاستحالة تبني اللغويون العرب المحدثون فكرة المستشرقين القائلة بأنّ الفصحى كانت "لغة أدبية مشتركة" لم يتكلم بها العرب في تخاطبهم اليومي العفوي، لأنّها لا تتصف بما تتصف به لغة التخاطب، وقد شاع ذلك وانتشر بل ورسخ في الأذهان، وهو وهم خطير والسبب في ذلك هو عدم الالتفات إلى ما قاله النحاة القدامى وأهل الأداء "المتخصصين في القراءات والتجويد"<sup>(37)</sup>، ولقد أشار عبد الرحمن الحاج صالح إلى أنّ كلّ من ألف في التجويد والقراءات قد ذكر أنّ الأداء هو ترتيب وحدر وتدوير، فالأول هو تمهّل وإعطاء كلّ الحروف حقها من الصفات التي تتصف بها وعدم الإدراج وهو هذا الذي يسمونه حدرا؛ فهو تأدية فيها اختصار وحذف، والتدوير هو أداء وسط بينهما، فلغة التخاطب العفوية لا يمكن أن تكون مرتّلة ولا يتمهّل في نطقه المتكلم إلاّ في حالات عدم فهم المخاطب لما يقوله المتكلم أو في حالات خاصة أخرى<sup>(38)</sup>، وتبعا لذلك، نجد عبد الرحمن الحاج صالح يورد مجموعة من النماذج التوضيحية عن الإدراج والتخفيف<sup>(39)</sup>، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

\*- فيما يخص الحركات: يرى عبد الرحمن الحاج صالح أنّ الإدراج بالنطق بالحركات يكثر بل ويطرّد أحيانا عند توالي الحركات، ونص على ذلك سبويه قال: "وأما الذين لا يشبعون فيختلسون اختلاسا وذلك قولك: "يضرّها"، و"من يأمنك"، يسرعون اللفظ، ولقد لوحظ الاختلاس في قراءة القرآن الحدرية، نحو قراءة قوله تعالى: "إلى بارئكم"<sup>(40)</sup>، فبين همزة

"بارئكم" والكاف حصل إخفاء لصوت الحركة ولكن الحركة من حيث هي حركة عضوية هوائية "تمكن من الانتقال من مخرج إلى مخرج آخر" موجودة حاصلة، ولقد أشار عبد الرحمن الحاج صالح إلى أنّ ذلك شائع أيضا في لغة التخاطب اليومي العفوي، وكذلك في الشعر. ومما يدلّك على أنّه يُخفى ويكون بزنة المتحرك قول الشاعر:

وإني بما قد كلّفتني عشيرتي من الذبّ عن أعراضها لحقيق

فالشاهد فيه إخفاء حركة الياء التي بعدها ميم وليس هناك قلب للباء إلى ميم ولا إدغام وإلاّ انكسر الوزن. كما أشار عبد الرحمن الحاج صالح إلى أنّ علماء اللغة قديما قد مثلوا للاختلاس في حالة يستحيل فيها أيضا الإدغام لسكون الحرف قبل الحرف المراد إدغامه، وذلك في مثل قولنا: "ابن نون"، و"اسم موسى"؛ فالحركة التي بين النونين أو الميمين أخفي صوتها، فكأنتهما متحركان بحركة واحدة وليس أحدهما مدغما في الآخر، وكذلك هو النطق بـ "شهر رمضان" في حالة الاختلاس<sup>(41)</sup>، ولقد كثر ذلك في الكلام العربي.

\*- فيما يخص اختزال الحروف: لقد لاحظ عبد الرحمن الحاج صالح بأنّ ظاهرة اختزال الحروف قد شاعت في التراث اللغوي القديم، وبدل على ذلك ما جاء في جميع كتب القراءات حول الإدغام مثلا، فجعل الهمزة بين بين أو حذفها كثير في الكلام وخاصة عند أهل الحجاز يقول سبويه: إذا كانت الهمزة مضمومة وقبلها ضمة أو كسرة، فإنّك تصيرها بين بين "تليها وتسهلها"، وذلك قولك: هذا درهم أختك ومن عند أمك، وهو قول العرب، ومثل ذلك: الحَمْرُ إذا أردت أن تخفف الأحمر، ومثله في المرأة: المرة(42)، واللافت للنظر هنا هو أنّ عبد الرحمن الحاج صالح، قد نوه وفسر وجود ظاهرة التخفيف في جميع خطابات العرب قديما؛ بل وعلل سبب ذلك بقوله: إذا أدرجوا ولم يحققوا، فلأنّهم كانوا أميين في أغلبيتهم الساحقة يتناقلون إنتاجهم الفكري الفني مشافهة جيلا بعد جيل، ولا يعتمدون في ذلك على كتابة معينة إلاّ في أحوال مطردة.

وأما عندما صارت لغة التخاطب ملحونة صار من يتعلم العربية الفصيحة منهم فصيحاً فيها بالتلقين فتكوّنت عند انتشار الكتابة وبسبب ذلك، عربية لا تعرف التخفيف "إلاّ في قراءة الحدر للقرآن عند أهل الأداء"، لأنّها خصصت لنقل الثقافة فابتعدت عن الأداء العفوي واستبدلت في التخاطب العفوي بالملحونة، فصار الإدراج هو الملحون، والملحون هو الإدراج -مع الأسف الشديد- ولا علاقة بينهما في الحقيقة؛ إذ كان الغالب على كلام العرب

السّليقيين في الفصاحة الإدراج كما كان أيضا حاصلًا عند غير الفصحاء عند التخاطب العفوي إلاّ أنّهم كانوا يلحنون، فالإدراج غير اللحن ولا يكون كذلك إلاّ إذا كان فيه ما ليس من كلام العرب فيما يخص النظام النحوي الصرفي، ولوجود الإدراج فيها سميت العامية باللغة الدارجة مع أنّ الإدراج هو مستوى التعبير العفوي، وكان فصيحًا عند قدامى العرب سواء أكان قراءة قرآنية أم شعرا أم تخاطبا عاديًا<sup>(43)</sup>.

والجدير بالذكر هنا هو أنّ عبد الرحمن الحاج صالح قد توصل عبر أبحاثه إلى أنّ "الذي ينقص العربية الفصحى في زماننا هذا -ومنذ القديم- هو هذا المستوى العفوي المستخف الموجود بالفعل في العامية وهيئات أن يكون لحنًا فكل ظواهر التخفيف موجودة فيها، لأنّها لغة مشافهة وتخاطب قامت مقامها العامية في هذه المشافهة العفوية، وتحتاج الفصحى -ونعني العربية غير الملحونة- التي يتعلمها الطفل في المدرسة إلى أن يُرجع إليها هذا المستوى من التعبير، وذلك بتنبية المعلم لتلاميذه أنّ هذا النطق المستخف الموجود في لغة التخاطب الذي سُمع من فصحاء العرب وقُرئ به القرآن "وقد أحصوا كل ذلك" ليس بخطأ وليس من العامية وحدها ويجوز له أن ينطق به في حالة التخاطب المسترسل<sup>(44)</sup>. "وهذا الجانب ينبغي أن يعتني به أكثر...، لأنّه يخضع لنواميس العفوية اللغوية التي تتصف بها كل اللغات التي ينطق بها يوميا"<sup>(45)</sup>.

وعند هذا المعطى من الطرح، نلاحظ أنّ عبد الرحمن الحاج صالح أكد في كثير من كتاباته إلى أنّ "ما نصبو إليه ليس هو إزالة العاميات فهذا يستحيل تحقيقه بالتمام، لكن الذي نريده هو التدخل -وهو ممكن- في تعليم العربية والتدخل في ميداني الإعلام والترفيه، لإعطاء الفصحى الفرصة لتكون لغة تخاطب تنافس العامية في الخطاب الشفاهي، بإحياء الأداء المستخف المسّمي بالإدراج، وقد فقدته، ويتم ذلك بتلقيه في المدارس وحثّ التلاميذ على استعماله في الأحوال الخطابية التي يسودها الأناقة وكذلك بإدخال الإدراج في التمثيليات وغير ذلك<sup>(46)</sup>، ولقد أشاد عبد الرحمن الحاج صالح إلى ضرورة الاهتمام بالمستوى الاسترسالي في الوسط المدرسي، لأنّه سبيل التحول إلى الفصحى على سبيل الخطاب الشفوي العفوي في تعاملات الناس اليومية، ولقد حث عبد الرحمن الحاج صالح اللغويون العرب، كما دعا أصحاب القرار والرأي على ضرورة العمل بغية أن تسترجع العربية الفصحى مكانتها على مستوى التخاطب العفوي اليومي، حيث «صارت الفصحى على مرّ الأيام المعيار المدرسي

الوحيد، والمدرسة لا تعلم إلا هذا الأداء المقروء»<sup>(47)</sup>، واللافت للنظر هنا أنّ هذه اللغة التي يكتسبها التلاميذ في المدارس لا تستعمل في التداول اليومي، لا داخل البيت، ولا في الشارع، ولا في أماكن العمل، ولا ريب في أنّ من يستعمل الفصحى في التخاطب العفوي ضمن هذه الأماكن وغيرها، سوف «يتعرض للاستهزاء والسخرية»<sup>(48)</sup>، ومما لا شك فيه هو أنّ «اللهجات العامية هي نتيجة لتطور الفصحى ولهجاتها المنطوق بها»<sup>(49)</sup>.

وتجميعاً لما سبق ذكره، نلاحظ بأنّ عبد الرحمن الحاج صالح قد توصل إلى جملة من النتائج حول مسألة التداخل بين اللغة العربية وعامياتها نوجزها كالآتي<sup>(50)</sup>:

- اللغة العربية الفصحى هي وضع واستعمال.
- يخضع الاستعمال للغة لنواميس التحول الزمني وهو السبب في تغيير النظام اللغوي والنحوي الصرفي وغيره، ويسبب هذا التحول أحداثاً تاريخية اجتماعية.
- إن العاميات هي نتيجة لتحول اللغات عبر الزمان أياً كانت، وذلك بتغيير نظامها النحوي الصرفي في الأساس وتغيير شيء من اللغة يعتبر خطأً بالنسبة لمعيارها وهو هذا النظام اللغوي المتواضع عليه عند أهلها، وهو ظاهرة طبيعية إلا أنّها غير محتومة إذ بالتدوين والتعليم يمكن الحفاظ على النظام اللغوي.
- تنشق اللغة بهذا التحوّل إذا انتشرت الكتابة إلى لغة ثقافة وهي النظام الذي تم تدوينه ولغة تخاطب عفوي وعادي، وهذا لا يخص العربية بل يمس كل اللغات إلا أنّ الاختلاف بينهما قد يخفّ بانتشار الثقافة إلى كل فئات الشعب.
- إنّ الرابط الذي يربط الناطقين بالعربية هو تداولهم للغة الفصحى، وليس العاميات المتفرعة عنها.

## - هوامش الدراسة

1- محمد عبد الله عطوات، اللغة الفصحى والعامية، دار النهضة العربية، لبنان، ط01، 1424هـ-2003م، ص12.

1- يرى عبد الرحمن الحاج صالح: أنّ اللغات البشرية الطبيعية هي أوضاع اجتماعية مثل سائر المؤسسات والنظم الاجتماعية الأخرى؛ كنظام الأسرة وما يرتبط به من زواج وطلاق ومثل ما يتعلق بتنظيم الدولة وغير ذلك، وما يجعلها كذلك هو أنّها نظام من الرموز يتواضع عليها لتبليغ الأغراض...، وتختلف اللغات البشرية عن غيرها في كونها طبيعية وليست مثل المؤسسات الاجتماعية التي يتواضع عليها الناس وهم شاعرون بذلك، وذلك كاللغات المصطنعة و(ولغات الصم البكم وغيرها)، وكسائر الأنظمة التي هي من وضع الإنسان وإرادته، ولهذا فالتحول الزمني للغات الطبيعية لا يشعر به الناطقون بها في وقت التحول ولا يتفطن إلى ذلك إلاّ اللغوي، والسبب الرئيسي لكلّ تحول هو تأثير الأحداث الاجتماعية في نظم المجتمع من خلال كيفية استخدام أفرادها لها. واللغة هي وضع واستعمال لهذا الوضع، وهذا قد ينسأه الكثير من الناس بالنسبة إلى اللغة العربية، ونخص بالذكر المجامع اللغوية وكلّ من يشتغل باللغة وتعليمها، فنظام اللغة يصيبه التغيير من خلال الاستعمال له، والغاية من استعمال اللغة هو التواصل وهذا يحتاج إلى نظام متماسك من الرموز المتباينة، إلاّ أنّ الاستعمال فعل محكم وكلّ فعل هو مكلف، فإذا كانت الكلفة باهظة أو تتجاوز الفائدة فيضطر المستعمل إلى من جهوده العضلية والذاكرية، وهذا هو السبب الأهم في تحول اللغة من نظام إلى نظام آخر، يراجع مقاله، العاميات العربية ولغة التخاطب الفصيحة، كتاب ضم أشغال الندوة الدولية الموسومة بعنوان: الفصحى وعامياتها، لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب، يومي 4، و 5 جوان 2007م، بالجزائر العاصمة، منشورات المجلس 2008م، ص81.

2- مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة تاريخها طبيعتها موضوعها مفاهيمها، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط01، 2010م، ص12.

3- عبد الرحمن الحاج صالح، العاميات العربية ولغة التخاطب الفصيحة، المرجع نفسه، ص80، 81.

4- يراجع سميح أبو مغلي، التدريس باللغة العربية الفصيحة لجميع المواد في المدارس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ط01، 1418هـ-1997م، ص28.

- 5- يراجع عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، دار النهضة العربية، لبنان، ط02، 1425هـ-2004، ص30.
- 6- يراجع حسين خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 1428هـ-2007م، ص266.
- 7- يراجع محمد يعقوبي، الوجيز في الفلسفة، مطبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط03، 1973م، ص195.
- 8- هو علم الإناسة: يهتم بكل الأمور المتعلقة والمرتبطة بحياة الإنسان، كاللغة، اللباس، العادات والتقاليد، وغيرها...
- 9- حسني عبد الجليل يوسف، اللغة العربية بين الأصالة والمعاصرة خصائصها ودورها الحضاري وانتصارها، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط01، 2007م، ص120.
- 10- مجيد الماشطة، العلاقة بين الفصحى واللهجات العامية في الماضي والحاضر والمستقبل، أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية، سلسلة اللسانيات، ع6، 1985، ص118.
- 11- العيد يمى، في معرفة النص، ص32، ط01، منشورات دار الآفاق الجديدة، لبنان، 1983.
- 12- إبراهيم السامرائي، التطور اللغوي التاريخي، ص58، ط03، دار الأندلس، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1983.
- 13- المرجع نفسه، ص62.
- 14- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر، الجزائر، 2007م، ص64.
- 15- عبد الرحمن الحاج صالح، اللغة العربية الفصيحة ودورها في المجتمع العربي، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، 2011م، ص13.
- 16- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، المرجع نفسه، ص70.
- 17- المرجع نفسه، ص70.
- 18- سهام مادن، الفصحى والعامية وعلاقتها في استعمالات الناطقين الجزائريين، د/ ط، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1432هـ-2011م، ص32.
- 19- عبد الرحمن الحاج صالح، العاميات العربية ولغة التخاطب الفصيحة، المرجع نفسه، ص80.
- 20- المرجع نفسه، ص85، 86.

- 21- يقترح عبد الرحمن الحاج صالح أن تسمى "بالثنائية" فهو أخص من الازدواجية اللغوية، المرجع نفسه، ص 87.
- 22- عبد الرحمن الحاج صالح، العاميات العربية ولغة التخاطب الفصيحة، المرجع نفسه، ص 87.
- 23- المرجع نفسه، ص 88.
- 24- هو الأمير أبو عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي الحلبي المتوفى سنة 466هـ.
- 25- سهام مادن، الفصحى والعامية وعلاقتهما في استعمالات الناطقين الجزائريين، المرجع نفسه، ص 05.
- 26- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ج 02، ط 11، دار المعارف، مصر، د/ت، ص 31.
- 27- عبد الرحمن الحاج صالح، العاميات العربية ولغة التخاطب الفصيحة المرجع نفسه، ص 89.
- 28- سورة الحجر، الآية 09.
- 29- ليست المصطلحات «اللغة الفصيحة، اللغة القومية، واللغة الرسمية، بمصطلحات مترادفة، فالصلة بينها تكمن في أن أية لغة يقبل بها المتحدثون كرمز للقومية (أي رمز للهوية السياسية والثقافية)، أو أن تكون الحكومة قد اختارتها من أجل الاستعمال الرسمي تنزع لأن تكون اللغة الفصيحة، سواء أكان هذا متعمداً أم خلاف ذلك، كشرط مسبق، أو كنتيجة لهذه الحقيقة بالذات أما عكس هذه العلاقة فأمر غير وارد، حيث أن هناك لغات على قدر كبير من الفصاحة والرتابة لا تندرج ضمن اللغات القومية أو الرسمية»، يراجع جون لوينز، اللغة واللغويات، تر: محمد العناني، ط 01، دار جرير للنشر والتوزيع، الأردن، 1430هـ - 2009م، ص 259.
- 30- سهام مادن، الفصحى والعامية وعلاقتهما في استعمالات الناطقين الجزائريين، المرجع نفسه، ص 28.
- 31- عبد الرحمن الحاج صالح، اللغة العربية الفصيحة ودورها في المجتمع العربي، المرجع نفسه، ص 16.
- 32- علينا أن نعترف أن لكل شخص لهجته الخاصة، أو كما يسميها اللغويون لغوته الفردية، وتختلف كل لغة فردية عن أية لغة فردية أخرى، طبعا في مفرداتها ولفظها وربما في قواعدها إلى درجة أقل، وبإضافة إلى ذلك، فإن اللغة الفردية لا تثبت نهائيا وعلى نحو حاسم في نهاية ما نعتبره عادة فترة الاكتساب اللغوي، بل أنها عرضة للتعديل والتوسيع طيلة حياتها، يراجع جون لوينز، اللغة واللغويات، تر: محمد العناني، ط 01، المرجع السابق، ص 46.

- 33- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج04، د/ط، ص372، موفم للنشر، لبنان، 1993.
- 34- المرجع نفسه، ص434.
- 35- محمد مصايف، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ط02، ص341، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- 36- عبد الرحمن الحاج صالح، العاميات العربية ولغة التخاطب الفصيحة، المرجع نفسه، ص90.
- 37- المرجع نفسه، ص90.
- 38- المرجع نفسه، ص91.
- 39- عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العربي ومفهوم الفصاحة، سلسلة علوم اللسان عند العرب 1، موفم للنشر الجزائر، 2012م، ص180 وما بعدها.
- 40- سورة البقرة، الآية رقم 54.
- 41- عبد الرحمن الحاج صالح، العاميات العربية ولغة التخاطب الفصيحة، المرجع نفسه، ص91، 92.
- 42- المرجع نفسه، ص93.
- 43- المرجع نفسه، ص94.
- 44- المرجع نفسه، ص94.
- 45- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، المرجع نفسه، ص74.
- 46- عرض عبد الرحمن الحاج صالح وجهة نظره على أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، حيث قدم جملة من الاقتراحات لإعادة الاعتبار للأداء في التعليم، وذلك في بحث وسمه بعنوان: اللغة العربية بين المشافهة والتحرير، وكان ذلك في سنة 1990م، ولقد نشر هذا البحث في مجلة المجمع، كما نشر في الجزائر في سنة 2005م، يراجع مقاله، العاميات العربية ولغة التخاطب الفصيحة، ص94.
- 47- عبد الرحمن الحاج صالح، اللغة العربية الفصيحة ودورها في المجتمع العربي، المرجع نفسه، ص17.
- 48- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، المرجع نفسه، ص74، 75.
- 49- المرجع نفسه، ص68.
- 50- عبد الرحمن الحاج صالح، العاميات العربية ولغة التخاطب الفصيحة المرجع نفسه، ص95.